رغيفان أسمران

قصة بقلم عيلي جدور

ما زلت اذكر شتاء ذلك العام الذي مر بعائلتنا . كان شتاء قارساً . وكانت استعداداتنا تجاهه ، جد قليلة . أوصت أمي اخاها بارسال مئة كيلو من الفحم وترجته كثيراً . ولكن خالي لم يقبض ثمن الفحم الذي ارسله لسنتين خلتا . وكان جارنا الفحام الذي يبيع الفحم من الناس بالمفرق ، يظهر امتعاضه كلما وقفت امامه وعلى علامات البرد الشديد ، وفي يدي سلة صغيرة ، راجياً اياه بعيني الذابلتين ان يمنحنا كيلو فحم واحداً ، وان يسجل قيمته في دفتره الكبير كذلك !! حتى كيس الطحين كان يتناقص شيئاً فشيئاً وكانت امي تضع تحته من الاشياء ما يكفيه لان يبقى عالياً ويحافظ على نسبة امتلائه التي اخذت تنقص من أول الشتاء .

في الصباح اذ ذهبت واخي الى المدرسة ، أبدينا تخوفنا من الميازيب التي فتحت افواهها ومن الطرق الموحلة ، والاحذية التي تمرر الماء بيسر وسهولة فتبلل جواربنا طيلة النهار ، فاذا عدنا ليلاً ، شكونا البرد حتى الصباح الذي كان كثيراً ما يتأخر وبخاصة علينا .. كنا ننام قليلاً ، وكانت معدنا قليلا ما تملأ كفاية ، وكانت الغرفة الوحيدة التي نقطنها كبيرة بحيث نبدو فيها وكأننا قد نصبنا خيمة صغيرة في فضاء لا تحده حدود .

كنا بالجملة ، مثالاً حياً لعائلة فقيرة ، خبزها كفافها ، واحلامها الطويلة العريضة لا تتعدى ذلك الكيس من الفحم ، والآخر من الطحين والتنكة الصغيرة من السمن ، عدا البسة تفيض بالدفء فتنعم اجساد هزيلة بنعيم الحياة .

في المساء ، وفي ابان العودة من المدرسة كنا كثيراً ما نتبارى انا وأخي في ان اكون انا او هو ، الاول في حزر روائح الاطعمة المتصاعدة من مطابخ الدور التي نمر بها . كان اخي اقدر مني في تمييز رائحة الرز والسمن الحار يغمره التو ، وكنت اسبقه في حزر اكلة المجدرة والزيت المغلي يسفح عليها ، والبيض المقلي ، ورائحة الكباب من المملاق المشوي . وكنا اذا وصلنا البيت جائعين يطحننا القر ، وعلى وجوهنا علامات الانكسار ، نتساءل معاً وباصوات مرتفعة ، عما طبخ لنا للعشاء . وكانت الخيبة تضيء في وجوهنا فتكسر ابصارنا خجلاً من وضعنا الذي يزداد سوءاً ، فنأكل الخبز وما تيسر له من الادام ونحن نحلم بالرز والبيض المقلي واسياخ المملاق وهي تقطر دهناً مصفى . وكان اكثرنا عذاباً امي . انها امرأة عظيمة ولا شك . كانت صبورة حتى ابعد حدود الصبر وكانت كريمة النفس بما لا يحد . وكانت ابية فلا تتهاون في المحافظة على كرامة العائلة والظهور امام الجيران بمظهر كريم . كانت ترد صحون الجيران وهي طافحة بالمآكل اللذيذة ، بحجة اننا لا نحب هذا الصنف من الطعام ، او بحجة اننا انتهينا من العشاء ؛ كانت تدرك بالبداهة ان هذا الصحن يجب ان لا يعود فارغاً ، كالعادة . انه يجب ان يملأ من عندنا . وكانت تعلم اننا قلما نطبخ طعاماً يتفق في الجودة وذلك الذي كانت الصحون تنقله الينا . ولذلك كانت تتصرف ببرود لا حد له ، وترد هذه الصحون التي كنا نغمض العيون على مرآها كلما خطرت مختالة بين ايدي اولاد جيراننا الاعزاء وتقول لنا وعلى فمها ابتسامة تستر حزناً مضاً :

— قد نطبخ غداً مما طبخ جيراننا اليوم ، فتشبعون كفاية !

وظلت المسكينة تردد هذه الجملة اكثر من عشر مرات في الاسبوع دون ان تبر بوعدها لنا ولو مرة واحدة . وكانت تذوب في ثيابها خجلاً منا . انها انشأتنا على الاحترام المتبادل بين الام واولادها ، وكانت تعتبرني واخي بمثابة ضيوف اعزاء لديها .. وكان منظرها المخجل تجاه الضيف الذي قصرت في واجب اكرامه ، يفتت منها الحشايا ويطبعها بطابع المرأة التي تبحث عن قبر مريح في دنيا جل احيائها اموات !

ما زال منظر ابي وهو يعود مساء ، من عمله ، يوحي الي بشتى الصور المعبرة عن انطباعات شتى . كان منظره في ثياب العمل يثير الضحك : طربوشه القديم يستر صلعته اللامعة ، ووجهه الذي كان يغطيه شعر كث لا يزول الا بموسى الحلاق مرة واحدة في الاسبوع ، وثيابه قد رقعت مرات عديدة ، حتى كاد يضيع على المتمعن فيها ، اللون الاصلي الذي كانت عليه ، في جدتها ، اما حذاؤه الكبير وما فيه من اوراق كرتونية ، وقطع قماش عتيقة ، لتناسب قدميه الصغيرتين ، فكان يبعث على التأمل في فوضى الحياة التي تيسر للقدم الصغيرة حذاء كبيراً ولا تيسر حذاء مناسباً !! وكانت السيكارة الرديئة ، ودخانها الذي يحلق كالصحون الطائرة في جو الغرفة يبعث على الشعور باننا في كهف قديم ، نعد الليالي ، ونبسم للظلمة ونغفو على حلم متصل بالحياة الرافهة والاطعمة التي تسكر رائحتها رؤوس الصغار امثالنا !!

في المدرسة ، وفي خلال فرصة الغداء ، كنا ننزوي ، في احدى الزوايا المعتمة ، ونخرج من المحفظة كيساً فيه غداؤنا : رغيفان اسمران ، وعشرون تمرة لا غير . كنت عندما اتناول طعامي المتواضع هذا ، انظر الى اخي فأجده كسير الفؤاد . كان وجهه لا يعبر عن مقت او كره . كان يفيض بالرضا في انصع اشكاله ولكنه كان يتألم . وينظر الي فيجدني — كما كان يجد نفسه — ما زلت بعد صغيراً : كتفان ضيقتان ويدان صغيرتان ، وقامة مغرقة في التواضع ، ومعدة صالحة لطحن حجارة الطرق المعدة لتعبيدها . كان لاخي اصدقاء عدة . انه الاول في صفه كل عام . انهم يحيطون به اينما تنقل . ولكنه كان يجيد التهرب منهم إبان الغداء ، لانه لا يريد ان يكشف لهم فقرنا وان غداءنا يقتصر ، باستمرار ، على رغيفين وعشرين تمرة لا غير . إن الفقر في مجتمعنا عيب كبير والكل يجهد نفسه ليظهر امام الناس غنياً . فهو ، بعد ليس بحاجة الى معونة احد . ولم نكن في تلك الايام نعتبره ظاهرة اجتماعية ، انما كان في حقيقته عيباً اخلاقياً محضاً !!

ذات يوم ، عاد أبي من عمله ، باسم الثغر ، يفيض وجهه عزيمة ، وتنطق ملامحه عن مضاء . كان يظهر سروره لكل شيء . كان ينظر الى كيس الطحين ويبتسم ، ويحدق في سلة الفحم الصغيرة ويكاد يضحك . ويتلمس بأصابعه الرفيعة ، ثيابنا ويكلم نفسه ، مكتفياً بهزة كبيرة من رأس اتعبته الحياة ، وكان جذله يتعاظم عندما كانت عيناه تستريحان على وجه امي . وكان يبدو لنا أنه يحيا من جديد على بسمتها الصغيرة واسنانها البيض اللامعة في عتمة حياتنا العابسة . وظل أبي صامتاً لا يتحدث في موضوع سروره الطاريء ، الى ان مدت أمي المفارش لننام .. ورفع أبي يده الى الفانوس ، ضاغطاً على لولب الفتيلة الى اسفل ، معطياً لبلورة الكاز ، فرصتها ، هي الاخرى ، من الراحة العميقة ، وبصوت اشبه بالترتيل اخذ ابي يحدثنا قائلاً :

– اسمعوا يا اولاد ، اقتربي يا ام صادق . سوف ترتدون من الغد، ثياباً جديدة ، بما فيها الاحذية التي لا يتطرق اليها الماء، وانت يا ام صادق سوف تأخذين لاخيك ما له في ذمتنا من قيمة الفحم. مع ثمن مئة كيلو جديدة. وسوف يمتلىء كيس الطحين امتلاءتاماً لا مصطنعاً . اليس كذلك ياأم صادق ؟!

فانفجرنا جميعاً ضاحكين. كان أخي لا يصدق ما يسمع. وكانت عدوى عدم التصديق ، اشبه برائحة مسك يحترق في غرفتنا ، رائحته سوف تدخل صدورنا . ولكنها رائحة مسك كاذب. اننا نسمع عن اشياء نشتهيها ولكن هل يمزح هذا الرجل الذي ما عرف المزاح في حياته قط؟ وفي خلال دهشتنا البالغه وحيرة أمي المسكينة ، اراد أبي ان يبدد شكوكنا فأخرج من جيب سرواله ورقة مالية كان لخشخشتها بين اصابعه ، صدى مستحب في نفوسنا وامرنا بالاقتراب منه، لنتأمل وسيلة من وسائل التعامل بين الناس ، اصبحت بالاستمرار فيه ، غاية الحياة المثلى !!

وعلى ضوء المصباح الخافت، وبجو مشبع بالاحلام، وبعيون اعماها الفقر، ارانا والدي هذه الورقة المالية التي عليها صورة نصفية لامرأة جميلة . انها ملكة ولا شك ، بتاجها الذهبي ، ونظرتها الانوفة وكبريائها الرفيع ، موحية للناظر شتى الخواطر الحلوة عن ملكة امة عظيمة . ولكن أبصارنا وقفت طويلاً عند الرقم الذي توزع زوايا الورقة .. انها تمثل الف وحدة نقدية . هل هي جنيه .. ام ماذا ؟ كانت معلومات أبي عن الاوراق المالية لا تتعدى اوراق المملكة العثمانية والجنيهات المصرية . وكانت معلوماتنا في اللغات الاجنبية لا تتعدى معلومات طالب ابتدائي درس الفرنسية في مراحلها الاولى . فلم يستطع اخي المبرز ان يقرأ ما عليها .. ان احرفها لاتينية وليست فرنسية قطعاً . وابي يقطع انها ليست جنيهات مصرية لان في مصر خديوي لا خديوية !! .

اعاد أبي الورقة الى جيب سرواله ، واستلقينا جميعاً على ظهورنا وابصارنا عالقة في السقف ، نتحدث عن المستقبل السعيد . اغرقنا ابي بالخيرات : سمن ، عسل . دبس . رز . سكر . شاي . صابون . طحين حلويات . سكاكر ، ثياب جديدة . فحم . فانوس عصري . سجادة تبعث الدفء في ارض الغرفة الرطبة . وكان كلما تحدث عما سوف يشتريه في الغد ، بعد عرض الورقة على الصراف ، اوصانا بكتمان الامر . فلا نحدث زملاءنا أو جيراننا . وكانت امي تكاد تسبق ابي في احلامها وامالها ، وان كنا انا وأخي على قدر ضئيل من الشك في ان تكون الدنيا قد تعلمت اداب السلوك . واخذت نحترم كل الزوار الذين وفدوا عليها ، للفرجة او التامل او الدرس !!

لم ننم من تلك الليلة الا قليلاً ، كان نومنا يقظة متقطعة .. كان أحلاماً حلوة في الجنة الارضية التي سوف نعيش فيها اعتباراً من الغد. وكنا جميعا نؤمن ان هذه الورقة ، سلمنا الى السعادة . ونثق ان الذي صنع هذا السلم نجار ماهر ماذق .

كان اليوم التالي ، يوم عطلة عند ابي. خرجنا معاً من المنزل، هو الى الصراف ، ونحن الى المدرسة . وتركنا امي تنظف الغرفة ، وتعد العدة لاستقبال المؤونة ، وتمسح الحزن لتضع فيها ثيابنا الجديدة . وعندما كنت احاول اغلاق باب المنزل المخلع كانت امي قد اخذت تردد اغنية قديمة ، تعلمتها في صباها لم اسمع منها سوى هذا المطلع : ايا منا الحلوة عادت لياليها !!

لم استطع الانتباه في المدرسة ، كفاية كان الاستاذ يتكلم ، فاسمع صوت ابي وهو يردد اسماء الحاجيات التي سوف يعود بها ظهراً .. وكان أخي صامتاً . ولكنه بالتأكيد كان يتأمل سترات زملائه لينتقي له سترة تفوق كل ستراتهم ، جودة ، وفي خلال الفرص كنت اذكره ، بأشياء جديدة ، سها أبي عن ذكرها . ونسينا نحن ان نذكره بها ، ليطلبها فيشتريها والدي في جملة المشتريات الاخرى.

عندما اقتربنا ظهراً من المنزل. كان جدار المنزل لم يتغير ، انه مازال بعد ، عتيقاً متداعياً .. حتى باب المنزل ، ما زال مخلوعاً من جرنه. وعندما دخلنا الغرفة كنا نعد العدة لان نرى عشرات الاكياس وعشرات الصرر ، ومئات المباهج تنتظر مموننا لأن نفضها ونتملى ما فيها ولكن غرفتنا مازالت هي .. هي . لم يتغير منها شيء : كيس الطحين كما تركناه وسلة الفحم تنتظر من يأخذها الى جارنا الفحام ليملأها . وطربوش ابي ما زال عتيقاً يوحي بالكآبة الناطقة . وابي في مكانه المعهود، وسيكارته الرديئة بين اصبعيه. وامي تحاول ان تبدو طبيعية وهي تضع لنا الغداء . اذ في يوم الخميس لا غداء لنا في المدرسة .

انتظرت اخي ان يتكلم .. ولكنني وجدته صامتاً، قد اغرقته المفاجأة وحثثت لساني على الحركة فخيبني . وقطعت أمي لحظة الصمت التي طالت بصوت عال :

– لماذا لا تقعدان للغداء .. اهناك ما يلهيكما عنه ؟!

ولعل أبي عندما تحدث بألم ، كان يرد عليها ولو بصورة غير مباشرة . وكان كذلك يريد ان يحل عقدة الخوف من الغد، التي اخذت تتولد في نفوسنا:

– ان الورقة المالية .. من ذوات الألف مارك .. انها عملة ملغاة يا أولادي .. عملة ملغاة !!

حلب

علي بدور

ظهر حديثاً في منشورات

دار المعارف

ق.ل		
١٢٠	النقد	من مجموعة فنون الادب العربي
١٢٠	الرثاء	« « « « «
١٢٠	الغزل	« « « « «
١٢٥	ابوالفتح الاصبهاني	من مجموعة نوابغ الفكر العربي
١٢٥	ابن الرومي	« « « « «
١٢٥	الفرزدق	« « « « «
٣٠٠	اللغة عند الطفل	من مجموعة علم النفس التكاملي
٥٠٠	الغرضية في السلوك الانساني	« « « « «
٢٥٠	التربية الفنية في فترة المراهقة	للاستاذ سعد الخادم
٧٥٠	حوار العباقرة	ترجمة الاستاذ بديع شريف
٤٠٠	قصص الحمراء	« « ابراهيم الابياري
٦٠٠	ابن فرجينيا	« « محمد عوض محمد
٢٥٠	اميركا بيت جحا	للاستاذ جورج عزيز

تطلب من المكتبات الشهيرة ومن متعهد التوزيع

دار المعارف بيروت لصاحبها أ. بدران

بناية العسيلي السور ص . ب ٢٦٧٦